ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

والقارئ لشعر مفدي زكريا يلمس فيه حبا جارفا للجزائر وحنينا دافقا لها ، ولم نرى بين الشعراء من يجاريه في هذه الخاصية ، وقد كانت الإلياذة " أعظم ما ختم به حياته الابداعية الطويلة التي تعد تمجيدا حارا للتاريخ ، عبر مراحله الحضارية الأصيلة ، ذلك العمل الذي خلد الشاعر عن طريق تخليده لتاريخ أمته ونضالها " [5]

لقد كان للوطن حضور مكثف في شعر مفدي زكريا ، وتوالى ذكر الثورة المباركة منذ دخول الاستعمار الفرنسي أرض الجزائر ، يقول مفدي زكريا :

وقل الجزائر واصغ إن ذكر اسمها تجد الجبابرة ساجدين وركّعا

إن الجزائر في الوجود رسالة الشعب قررها وربك وقّعا

إن الجزائر قطعة قدسية في الكون لحنها الرصاص ووقعا [6]

ويبرز شعره أحد أوجه المقاومة الوطنية للاستعمار الذي جثم على أرض الجزائر لأكثر من قرن ، فقد كان مضمون شعره قضية أمة ونبض مشاعر لشعب ذاق ألوان العذاب وعرف أقسى أنواع الاستعمار ، فما كان منهم إلا الذود عن هذا الوطن بالغالي والنفيس والدعوة الى الحرب وتحطيم أغلال الطغيان والاستدمار ، وفي ذلك يقول :

ولبّاك شعب كاد يفقد ظنه بوعدك لولا أنه يحفظ الذكرا

وأشربته حب الشهادة فارتمى على غمرات الموت تلهبه الذكرى [7]

حيث تظافر كل الشعب لتحقيق الاستقلال والارتماء دون تفكير في ساحة الموت فإما استقلال أو شهادة وفي قوله أيضا :

وفي ساحة التحرير سوق قوامها ضمائر قوم لا تباع ولا تشترى

عبرنا على السبع الشداد نشقها ولم تثننا الأرزاء أن نعبر العشرا [8]

وفي قوله وصف لملامح الجزائري صحاب الضمير الحي الغيور على وطنه ، يشق الشداد ولا تثنه الأرزاء دون تحقيق هدفه وهو الاستقلال والحرية ، واستخدام الضمير الجمعي في (عبرنا ـ تثننا ـ نعبر) يعبر عن وحدة الهدف والمصير .

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

لقد تعدت سمعة الثورة الجزائرية حدود الوطن الى المحافل الدولية العالمية ، وأصبحت حديث اجتماعاتهم وملتقياتهم ، حيث أضاءت محور الكون بنارها ونورها ، و أصبحت ملهمة لكل الشعوب المستعمرة تستلهم من تضحيات شعبها الأدبي الثائر المحب لوطنه وأرضه ، وهذا ما جسده الشاعر في قوله :

ويا ثورة حار فيها الزمان وفي شعبها الهادئ الثائر
ويا وحدة صهرتها الخطو ب فقامت على دمها الفائر
شغلنا الورى
وملأنا الدنا
بشعر نرتله كالصلاة
تسابيحه من حنايا الجزائر[9]

حضور البعد القومي والعربي :

إن موضوع الوحدة العربية والقومية على حد سواء يشكلان انشغالا كبيرا لدى مفدي زكريا ، ويظهر ذلك جليا من خلال أشعاره ، والمتتبع لشعره يلحظ إلحاحه على تجسيد الوحدة العربية والمغاربية ، لما لها من أثر في تحقيق التضامن العربي ، وهاهو شاعرنا يثبت للرأي العربي عروبة الجزائر وكفاحها الذي هو امتداد لكفاح الأمة العربية بأسرها ضد الظلم والطغيان ، يقول مفدي زكريا :

ويا عربيا في بلاد شقيقة عروبتنا من يستطيع لها نكرا؟
فما حربنا إلا امتداد لثورة أرادها من كان يخذلنا خسرا
فلسطين في أرض الجزائر بعثها فمدوا يدا نخم المعاقل والثغرا [10]

ولشاعرنا مواقف وآراء ودعوات متكررة لموضوع الوحدة العربية ، ويشكل شعره معينا فكريا وجماليا بما تضمنه من طروحات عميقة الأثر ، بعيدة الرؤية ، صادحة بإيمان راسخ بفكرة الوحدة وتحقيقها على المستوى الجغرافي والتاريخي والحضاري وسوى ذلك ، وهو لا يرى للجزائر عزا حتى تستقل ، ولا مجدا للجزائر والعرب أجمعين حتى تتحقق هذه الوحدة العربية :

فلا عز حتى تستقل جزائر ولا مجد حتى نصنع الوحدة الكبرى [11]

وقد شارك مفدي زكريا في مؤتمرات يدعو من خلالها للوحدة المغاربية ، حيث طلب من كل طالب منخرط في اتحاد طلاب شمال افريقيا ، الى القسم بأن يعتنق تلك المبادئ ويؤمن بها كما يعتنق الاسلام

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

عقيدة ودينا " كل مسلم بشمال افريقيا يؤمن بالله ورسوله ووحدة شماله ، هو أخي قسيم روحي فلا فرق بين تونسي وجزائري ومغربي ، ولا بين مالكي وحنفي وشافعي وإباضي وحنبلي ، ولا بين عربي وقبائلي ، ولا بين مدني وقروي ، بل كلهم إخواني ما داموا يعملون لله والوطن " [12]

وقام بإلقاء العديد من القصائد في مثل هذه المؤتمرات ، منها قوله في مؤتمر العاصمة سنة 1932: [13]

نهوضا بني افريقيا من سباتكم فإن عيون الحادثات بمرصاد

تناديكم الأجداد من رحم الثرى فلبوا الى العلياء دعوة أجداد

كفانا شقاء من وباء شقاقنا وتمزيق مجموع وتشتيت أفراد

فهل نحن إلا أمة عربية شقيقة أرواح قسيمة أكباد

وهل نحن إلا أمة أحمدية مقدسة غرا ، سليلة أمجاد

ويلح أيضا على وحدة المغرب العربي في مؤتمر تلمسان سنة 1935 بقوله :[14]

إن الجزائر في الغرام وتونس والمغرب الأقصى خلقن سواء

نحن العروبة والشمال بلادنا به نعيش أعزة كرماء

ومن ثم يعد مفدي زكريا من أصدق دعاة الوحدة العربية والمغاربية ، إذ ترتسم أمامه وهو ينظم أشعاره الوطنية ، وحدة واحدة لا تتجزأ ، وحدة جديرة بأسمى آيات التضحية ، دفاعا عنها وصونا لكيانها ، وليس هذا فقط حال شاعرنا بل " كان الشعر الجزائري منذ مطلع هذا القرن وبداية النهضة الأدبية في الجزائر معبرا عن قضايا الشعب مصورا لأحداثه ، كما كان الأديب شاعرا وناثرا مواكبا لحركة النضال في الوطن العربي ، ومسهما فيها بقلمه وروحه ، وكان يتحمس في كل ذلك عروبته وبستلهم منها قيمه ومثله ومطامحه ".[15]

حضور البعد الديني :

إتخذ الأدب الجزائري في عمومه ابتداء من ثلاثينيات القرن الماضي طابعا اصلاحيا حيث " إن المتتبع للشعر الجزائري بوصفه واقعا فكريا وفنيا يرجح أن تكون الحركة الاصلاحية التي عرفتها البلاد في عهد الاستعمار في الربع الأول من القرن الماضي وعلى طول امتدادها ، هي المسار الحقيقي للشعر من حيث مبناه على وجه الخصوص ، فالشعر في ظلها استطاع أن يعيش اللحظة والواقع بصفة عامة ، فكشف عن

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

نوايا المستعمر المستبد ، وتتبع سير أعماله وفضحها ، كما وقف بالمرصاد للانحراف الديني الذي ساد فترة الاستعمار ".[16]

ومن الطبيعي في تلك الفترة بالذات أن يرتبط الشعر بفكر الإصلاح ، ولعل أبرز منحى سلكه الشعر أنذاك هو الاتجاه الديني ، وهذا ما يفسر الانخراط شبه الكلي لشعراء ما قبل الثورة في الحركة الاصلاحية.[17]

وكان لمفدي زكريا مواقف بطولية حاسمة ضد فرنسا متحديا إيّاها ومواجها لكل مخططاتها الدنيئة لمحاربة الدين الاسلامي واللغة العربية لغة القرآن ، فوقف موقف المحذر للشباب (رجال المستقبل) مما كان الاستعمار يحاول غرسه في نفوسهم ، وذلك باستقطابهم الى ثقافته ، وصرفهم عن لغة القرآن وثقافة الاسلام ، فيقول :[18]

ربّوا انفسكم على خلق الهدى إن شئتم حرية وعلاء

والدين إن الدين أعظم عدّة ، فبدونه تعدو الشعوب هباء

كما يذكرهم بشرف ما وضع في أعناقهم من واجب الحفاظ على معتقداتهم ولغتهم العربية ، وهذا خاصة بعد المخطط الرهيب الذي وضعه المستعمر وأعد له ، وذلك بمناسبة مرور مائة عام على احتلال الجزائر ، لقد حشد كل إمكانياته المادية والمعنوية ليغزو الجزائر فكريا إن فشل في القضاء عليها عن طريق غزوها بالاستيطان ، حيث قال :[19]

بني المشرق هلا اليوم نظرة راحم الى لغة أمست رهينة أحقاد

ألا ترقبون الله فيها فإنها لسان كاتب من هدى الله وقاد

إن من أهم العناصر التي احتوت عليها قصائد مفدي زكريا في هذه الفترة هو تأكيده الدائم على أصالة الشعب الجزائري وانتمائه الى عروبته وإسلامه ، فهو مع اعتزازه الدائم بالشخصية الجزائرية " حريص كل الحرص على مقاومته كل السياسات الفرنسية والمسخ والتذويب والادماج ، التي كان يدعو إليها المستعمر الفرنسي "[20]

يعد توظيف البعد الديني واضحا جليا في شعر مفدي زكريا ، ذلك أنه نشأ نشأة دينية وتشرب من منبع البيئة الاسلامية ، مما جعله يضفي على أشعاره طابعا اسلاميا مميزا ، ونجد ذلك متجسدا من خلال

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

تشبيهه لليلة الفاتح من نوفمبر ـ وهو تاريخ اندلاع الثورة الجزائرية المسلحة ـ بليلة القدر التي هي خير من ألف شهر ، في قوله :

تأذن ربك ليلة قدر وألقى الستار على ألف شهر
وقال له الشعب أمرك ربي وقال له الرب أمرك أمري
نوفمبر غيرت مجرى الحياة وكنت نوفمبر مطلع فجر
وذكرتنا في الجزائر بدرا فقمنا نضاهي صحابة بدر [21]

يؤمن مفدي زكريا بأن ثورة الشعب الجزائري تعد انصياعا لأوامر إلاهية من الله سبحانه وتعالى وايذانا منه باندلاع هذه الشرارة ، وإعلان لرفه راية الاسلام عاليا وإعلاء كلمة الحق ضد مستعمر غاشم سعى لمحو وطمس الدين الاسلامي ، فأراد الله أن ينصر دينه ، فشبّه الشاعر ليلة أول نوفمبر بليلة القدر لقدسيتها ، وشبّه حرب الجزائر بغزوة بدر مستلهمين القوة والشجاعة والبطولة من صحابة رسول الله ، فيغيّر نوفمبر مجرى الحياة من ظلمات المستعمر الى كفاح واستشهاد في سبيل الله والوطن ، فكان نوفمبر مطلع فجر ونور حفر في ذاكرة الجزائريين مجدهم الأبدي .

حاول مفدي زكريا ربط ثورة التحرير بأبعاد روحية وتاريخية متجذرة في عمق الوعي للشخصية الجزائرية ، والمتمعن في ثنايا شعره يلمح تلك الأبعاد التي أراد الشاعر من خلالها ربط الثورة بالدين ، حين قال :

وسقنا سفين الوعد حمرا شراعها يوجهها للنصر من وعد النصرا
ورثنا عصا موسى فجدد صنعها حجانا ، فراحت تلقط النار لا السحرا
وكلم الله موسى في الطور خفية وفي الأطلس الجبّار كلمنا جهرا
تباركت شعبا بالخوارق طافحا وسبحان من بالشعب في ليله أسرى [22]

لقد مجّد الشاعر ثورة الجزائر وربطها بأصولها العقيدية ، وكانت مادته الشعرية مستمدة من معين الثقافة الاسلامية الأصيلة ،فقارئ هذه الأبيات يلحظ الألفاظ الدينية التي تدل على عقيدة الشاعر ، فكانت ألفاظا موحية قوية بعيدة الصدى ، جزلة وذات نبرة خطابية وعظية ، وكيف لا وقد ارتبط اسمه بإلياذة الجزائر التي تلخص تاريخها الثوري ، وهو أحد رجالاتها إذ التزم بقضاياها ، وقد جعل الثورة الجزائرية بعثا جديدا لشعب قبره الاستعمار ، فكانت بمثابة اليقين دفع بالشاعر الى الايمان ، فهو يعتبر ثورة الجزائر مظهرا من مظاهر الوجود الإلاهي ، حين قال :

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

فكم كنت يا رحمن في الشك غارقا فآمنت بالرحمن في الثورة الكبرى[23]

ولم يكن الشعر الديني حديث عهد بالثورة "فالجدير بالملاحظة أن فترة الثلاثينات كانت تزخر بالشعر الديني "[24]، ومرد ذلك يرجع الى الوعي العام على الصعيدين الديني والسياسي ، وقد امتد الى ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وكان إيذانا باندلا ع الثورة الجزائرية الكبرى .

ولم يكن انتشار الشعر الديني في تلك الحقبة الزمنية عبثا ، بل حاول الشعراء في ذلك سعيهم لترسيخ مبادئ الدين الاسلامي والعقيدة ، وابطال مشروع المستعمر في محو الشخصية الجزائرية وأحد أهم مقوماتها وهو الدين .

خاتمة :

من بين النتائج التي خلصنا إليها من هذه الدراسة ما يلي :

- تعد الثورة الجزائرية في شعر مفدري زكريا مرجعا هاما ومعينا لا ينضب في ترسيخ هوية الشعب الجزائري .
- إن تاريخ الجزائر لم يدوّن من عدم ، بل دفع جيل الثورة ثمنا غاليا لنيل الحرية والكرامة ، وقيمة التاريخ تبقى راسخة في الذاكرة ومنقوشة في الوجدان ، ومن حق كل جزائري الافتخار بأصله وتاريخه .
- تأكيد مفدي زكريا وحرصه من خلال رسالتة الشعرية على أهمية بناء مستقبل مؤسس على دعائم متينة أساسها مقومات الهوية الوطنية .
- ساهم الشعر الثوري لمفدي زكريا في توحيد الشعور الجمعي وإفشال سياسة الاستعمار الذي أراد من خلالها طمس هوية الشعب الجزائري .
- إن الشعر الجزائري عموما وشعر مفدي زكريا بالخصوص في تلك الفترة يعبر عن ذروة الوعي التاريخي ، وذلك من خلال الدفاع المستميت عن قيم الهوة الوطنية ، والتصدي لمحاولات الطمس والذوبان في شخصية المستعمر .

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

التهميش :

[1] عبد الحميد بن باديس ، آثار الامام عبد الحميد بن باديس ، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر ، 1985، ص 325 .

[2] مفدي زكريا ، إلياذة الجزائر إعداد مربعي الطاهر ، دار المختار للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر ،2009 ، ص 6.

[3] مفدي زكريا ، إلياذة الجزائر ، ص7.

[4] محمد ناصر ، مفدي زكريا شاعر النضال والثورة ، دراسة ونصوص ، الجزائر ، نشر جمعية التراث ، المطبعة العربية ، 1984،ص 35.

[5] مفدي زكريا ، اللهب المقدس ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، 2007، ص51 .

[6] مفدي زكريا ، اللهب المقدس ، ص256 .

[7] مفدي زكريا ، اللهب المقدس ، ص 257.

[8] مفدي زكريا ، إلياذة الجزائر ، ص 7 .

[9] مفدي زكريا ، اللهب المقدس ، ص 264.

[10] مفدي زكريا ، اللهب المقدس ، ص264 .

[11] محمد ناصر ، مفدي زكريا شاعر النضال والثورة ، ص 20.

[12] المرجع نفسه ، ص 20 .

[13] المرجع نفسه ، ص 20.

[14] المرجع نفسه ، ص20 .

[15] عبد الله الركيبي ، قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1983 ، ص 57 ـ58 .

[16] محمد موسوني ، مدخل الى الشعر الديني الجزائري الحديث ، مجلة حوليات التراث ، جامعة مستغانم ، الجزائر ، العدد 1 ، 2004، ص 127 .

[17] صالح خرفي ، الشعر الجزائري الحديث ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، (د ت) ، ص 134 .

[18] محمد ناصر ، مفدي زكريا شاعر النضال والثورة ، ص35 .

[19] ينظر : محمد ناصر ، المرجع نفسه ، ص103 .

[20] عبد المالك مرتاض ، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر (1830 ـ 1962) ، مرصد لصور المقاومة في الشعر الجزائري، (دط) ، سلسلة منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية ، ص 493 .

[21] مفدي زكريا ، إلياذة الجزائر ، ص 55 ـ56 .

[22] مفدي زكريا ، اللهب المقدس ، ص 255 ـ 256 .

[23] مفدي زكريا ، اللهب المقدس ، ص 256 .

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

[24] الوناس شعباني ، تطور الشعر الجزائري منذ سنة 1945 حتى سنة 1980 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1983 ، ص 26 .

المراجع :

1. صالح خرفي ، الشعر الجزائري الحديث ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، (دت) .
2. عبد الحميد بن باديس ، آثار الامام عبد الحميد بن باديس ، مطبوعات وزارة الؤون الدينية ، الجزائر ، 1985.
3. عبد اللة الركيبي ، قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1983.
4. عبد المالك مرتاض ، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر (1830 ـ 1962) ، مرصد لصور المقاومة في الشعر الجزائري، (دط) ، سلسلة منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية .
5. محمد ناصر ، مفدي زكريا شاعر النضال والثورة ، دراسة ونصوص ، الجزائر ، نشر جمعية التراث ، المطبعة العربية ، 1984.
6. محمد موسوني ، مدخل الى الشعر الديني الجزائري الحديث ، مجلة حوليات التراث ، جامعة مستغانم ، الجزائر ، العدد 1 ، 2004.
7. مفدي زكريا ، إلياذة الجزائر إعداد مربعي الطاهر ، دار المختار للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر ،2009 .
8. مفدي زكريا ، اللهب المقدس ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، 2007 .
9. الوناس شعباني ، تطور الشعر الجزائري منذ سنة 1945 حتى سنة 1980 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1983.